المحاضرة الرابعة : الحبُّ الإلهي

الحب الإلهي أساس التصوف وروحه ، فالمتصوف في رحلته الكشفية ، يجهد ويجتهد لبلوغ هذه المرتبة العظيمة ، بمعرفة محبوبه ووصله والتشوّق إليه ، ونيل محبته ورضاه ، ولن يصل إلى هذه المرتبة السنية والدرجة الرفيعة إلاّ بالارتقاء من حال إلى حال ، والسفر من مقام إلى مقام .

فالله سبحانه وتعالى سرّ الوجود وأصله ، خلق الكون وأبدع فيه ، خلق الإنسان في أحسن صورة ، جعل له السمع والبصر والفؤاد ليشكر الله على نعمائه ، ويعبده وحده لا يشرك به شيئا ، سخر له الشمس والقمر والنجوم والجبال والبحار.. ليتدبر ويتفكر في آيات الله وأسباب خلقه ، وليعلم أنّ الله يختبرهم أيّهم أحسن عملا . قال تعالى : " **وهو الذي خلق السمواتِ والأرضَ في ستةِ أيّامٍ وكانَ عرشُهُ على الماءِ لِيَبلُوكم أيُّكُم أحسنُ عملاً** " [1]

فالمحبة عاطفة فياضة تغمر القلب ، وتجعل الجوارح لا تشعر بالسعادة والأنس إلاّ بجوار المحبوب " والحب هو ميل القلب والعواطف إلى المحبوب ، وحب العبد لله شرعا هو طاعة أوامره واجتناب معاصيه ، أما الحب الإلهي تصوفا فقد أشار إليه أبو سعيد الخراز فقال : طوبى لمن شرب كأسا من محبّته ، وذاق نعيما من مناجاة الخليل وقربه ، بما وجد من اللذات بحبه ، فملئ قلبه حبّا ، وطار بالله طربا ، وهام إليه اشتياقا، فيا له من وامق أسف ، بربه كلف دنف ، ليس له سكن غيره ، ولا مألوف سواه " [2]

والمحبّة تتردد في كتاب الله وسنّة نبيّه ، كما تتردد في طاعة العبد لخالقه وتسبيحه آناء الليل وأطراف النهار، تتجلى أوضح جلاء في أداء العبادات والنوافل " ودوام ذكر الله

---

[1]) – سورة هود ، الآية 7

[2]) – محمد عبد المنعم خفاجي ، الأدب في التراث الصوفي ، ص 199 ، 200

وتسبيحه والتّأمل في ملكوته والتّوبة إليه والتّوكّل عليه والخلوص له والانقياد والاستسلام الكامل بالقلب ظاهرا وباطنا حتى لا يبقى في القلب موضع لغيره " [1]

ومحبة الله تعالى بصدق تتضح في اتّباع أوامره والانتهاء عند نواهيه ، وترك المحرمات واجتناب المعاصي ، وإظهار الشكر والحمد لأنعمه وجزيل عطائه ، يقول محمد الوراق :

تعصي الإلهَ وأنتَ تظهرُ حبَّه * هذا محالٌ في القياسِ بديعُ

لو كنتَ تُضمرُ حبَّهُ لأَطَعتَهُ * إنَّ المحبَّ لِمَن أَحبَّ مُطيعُ

في كلِّ يومٍ يبتليكَ بنعمةٍ * منهُ وأنتَ لشكرِ ذاك مُضيعُ [2]

ففي كتاب الله تعالى آيات كثيرة ، تبيّن محبته تعالى لعباده المؤمنين ، كما تظهر محبة المؤمنين لخالقهم وشوقهم لرؤيته ونيل رضاه سبحانه . ومنه قوله تعالى : " **فسيأتي اللهُ بقومٍ يحبُّهم ويحبُّونهُ أذلّةٍ على المؤمنينَ أعزّةٍ على الكافرينَ** " [3]

وقوله تعالى : " **قل إن كُنتم تُحبُّونَ اللهَ فاتّبعوني يُحببكمُ اللهُ ويغفرْ لكُم ذنوبكُم واللهُ غفُورٌ رحيمٌ** " [4]

وفي السنة النبوية ورد قوله صلى الله عليه وسلم : " **ثلاثٌ من كنّ فيه وجد حلاوةَ الإيمانِ : أن يكون اللهُ ورسولهُ أحبّ إليه ممّا سواهما ، وأن يحبّ المرءَ لا يحبّهُ إلاّ لله ، وأن يكرهَ أن يعودَ في الكُفرِ كما يكرهُ أن يُقذفَ في النّارِ** " [5]

---

[1]) – شوقي ضيف ، فصول في الشعر ونقده ط2 ، دار المعارف ، القاهرة ، ص200

[2]) – شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، ص 410

[3]) – سورة المائدة ، الآية 54

[4]) – سورة آل عمران ، الآية 31

[5]) – الإمام البخاري محمد بن إسماعيل ، صحيح البخاري ، ص18 (باب الإيمان)

وفي الحديث القدسي ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " **من عادى لي وليًّا فقد آذنتهُ بالحربِ ، وما تقرّبَ إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ ممّا افترضتُهُ عليهِ ، وما يزالُ عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافلِ حتّى أُحبَّهُ ، فإذا أحببتُهُ كنتُ سمعهُ الذي يسمعُ بهِ ، وبصرَهُ الذي يبصرُ بهِ ، ويدهُ التي يبطشُ بها ورجلهُ التّي يمشي بها ، ولئن سألني لَأُعطينَّهُ ، ولئنْ استعاذ بي لأُعيذنّهُ** " [1]

ومن اصطلاحات المتصوفة : الشوق والعشق والحب والوجد والفناء والبقاء.. فالحب عند المتصوفة يجعل من الحب العذري منطلقا وأرضية خصبة في تصوير أحوال المحب ودقائق شعوره ، واكتوائه بنار الفراق ؛ لكنه حب لا لسعاد ولا بثينة ولا لبنى أو ليلى ، بل هو حب للذّات الإلهية وشوق إلى مناجاتها ، والاقتراب منها ووصلها حتى يتحقق الفناء والانمحاء فيها . وهذا المعنى الفلسفي الدقيق أول من أسّس له سلوكا ونظما ، **رابعة العدوية** ، تلك المرأة الزاهدة ، التي هامت وجدا بحب الله ، وأسست لمدرسة عشقية فريدة من نوعها ، مؤداها أنّ حبها لله خالص من دون مآرب أو غايات دنيوية أو أخروية ، فهي تقول : بأنني لم أحبك طمعا في جنانك ، ولا أحببتك خوفا من نيرانك ، إنّما أحببتك لذاتك ، تقول في ذلك شعرا :

كلهم يعبدون من خوفِ نار * ويرون النجاةَ حظًا جزيلا

أو بأن يسكنوا الجنانَ فيحظوا * بقصورٍ ويشربوا سلسبيلا

ليس لي في الجِنانِ والنّارِ حظٌّ * أنا لا أبتغي بحبّي بديلا [2]

وتصور حبها لله ، فهي دائمة الانشغال به ، شديدة التعلق باسمه وصفاته ، الجسم مع الناس والروح تسبح في ملكوت الله تعالى ، تقول :

---

[1]) – الإمام الزبيدي ، مختصر صحيح البخاري ، ص483 ، 484

[2]) - محمد عبد المنعم خفاجي ، الأدب في التراث الصوفي ، ص201 ،202

إني جعلتُك في الفؤادِ محدّثي * وأبحثُ جسمي من أراد جلوسي

فالجسمُ منّي للجليسِ مُؤانسُ * وحبيبُ قلبي في الفؤادِ أنيسي

أما الحلاج شهيد العشق فيقول ؛ وقد فنت روحه وذابت ولهًا وشوقا ، يقول :

رأيتُ ربي بعينِ قلبي * فقلتُ : من أنتَ ؟ قال : أنتَ

فليسَ لِلأينِ منكَ أين * وليسَ أينَ بحيثُ أنتَ

وليسَ للوهمِ منكَ وهمُ * فيعلمُ الوهمُ أين أنتَ

أنتَ الذّي حُزتَ كلَّ أينٍ * بنحو " لا أين " أينَ أنتَ ؟

ففي فَنائي فنا فنائي * وفي فَنائي وجدتُ أنتَ

في محوِ اسمي ورسمِ جسمي * سألتُ عنّي فقلتُ : أنتَ

أشارَ سرّي إليكَ حتّى * فنيتَ عنّي ودُمتَ أنتَ

أنت حياتي وسرُ قلبي * فحينما كنتَ كنت أنت

أحطتَ علما بكلِّ شيءٍ * فكلُّ شيءٍ أراهُ أنتَ

فمنَّ بالعفوِ يا إلهي * فليسَ أرجو سواكَ أنتَ [1]

أمّا سلطان العاشقين **ابن الفارض** فقد شدا وغرّد ، وحلّقت روحه عشقا وولها في المدى ؛ ومما قاله :

أدِر ذكرَ من أهوى ولو بِملامِ * فإنّ أحاديث الحبيبِ مُدامي

[1]) – علي الخطيب ، اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاج وابن عربي ، 34

لِيشهدَ سمعي مَن أُحبُّ وإن نأى * بطيفِ ملامٍ لا بطيفِ منامِ

فلي ذكرُها يحلو على كلِّ صيغةٍ * وإن مزجوهُ عُذّلي بخِصامِ

بروحي من أتلفتُ روحي بحبّها * فخان حِمامي قبل يومِ حِمامي

ومن أجلِها طاب افتضاحي ولذَّ لي اطّرا * حي وذلّي بعد عزِّ مقامي

وفيها حلالي بعد نُسكي تهتُّكي * وخَلعُ عِذاري وارتكابُ أثامي

أصلّي فأشدو حين أتلو بذِكرِها * وأطربُ في المِحرابِ وهي إمامي

وبالحَجّ إن أحرمتُ لبّيتُ باسمها * وعنها أرى الإمساكَ فطرَ صيامي

أروحُ بقلبٍ بالصّبابةِ هائمِ * وأعدو بطرفٍ بالكآبة هامِ* [1]

[1]) – ابن الفارض ، الديوان ، شرح : هيثم هلال ، ط3 ، دار المعرفة ، بيروت ، 1429 هـ/2008 ، ص125 .

- هام : من هَمت العين إذا سالت بالدمع